# الأساس التأويلي للخطاب الديني عند نصر حامد أبو زيد

**الطالبة الباحثة : بن أحمد إيمان**
سنة أولى دكتوراه
جامعة ابي بكر بلقايد تلمسان
كلية: العلوم الإنسانية و الإجتماعية
قسم فلسفة

اشتهر نصر حامد أبو زيد بمشروعه الفكري الطموح الذي يرتكز على تأويل الفكر الديني و نقده، باعتباره خطابا مثله مثل باقي الخطابات التاريخية الأخرى: كالأدب والفلسفة والعلم....

وقبل الكشف عن آليات هذا الخطاب و منطلقاته التي تستدعي النقد والتأويل ، يؤكد نصر حامد أبو زيد أنه لا خلاف على أن الدين و ليس الإسلام وحده يجب أن يكون عنصرا أساسيا في أي مشروع للنهضة ، والخلاف هنا يرتكز حول المقصود من الدين ما إذا كان يمارس بشكل إيديولوجي نفعي من جانب اليمين و اليسار على سواء أو من الدين بعد تحليله و فهمه و تأويله تأويلا علميا ينفي عنه الأسطورة متجها نحو التقدم والعدل و الحرية. [1]

وهذا ما حاول أبو زيد التركيز عليه من خلال مجموعة من الآليات والمنطلقات الفكرية التي تتطلب التأويل من بينها أنه يمكن الحديث عن منطلقين أساسين لهذا الفكر هما : الحاكمية والنص.

***أولا : الحاكمية** : و التي تؤكد أن دعوة الإسلام في جوهرها هي دعوة لإعمال العقل و تكريس العدل في مجال السلوك الاجتماعي ، كما ظل

[1] – نصر حامد أبو زيد ، نقد الخطاب الديني ، المركز الثقافي العربي ، ط3 ،1994، ص11.

الخطاب الديني في تاريخ الثقافة الإسلامية حريصا كل الحرص على نفي وتجنب أي

تعارض يمكن أن ينشأ بين الوحي و العقل ، و اتفق الجميع تقريبا على أن النقل إنما يثبت بالعقل و العكس ليس صحيحا ، ذلك لان العقل هو الأساس في تقبل الوحي.

ويعود مصطلح الحاكمية حسب تأويلات أبو زيد إلى حادثة رفع المصاحف على أسنة السيوف و حرصهم على تحكيم كتاب الله من جانب الأمويين في موقعة "صفين" [1] ، وهي طبعا حيلة إيديولوجية استطاعت أن تخترق باسم النص صفوف قوات الخصوم وأن توقع بينهم خلافا أنهى الصراع لصالح الأمويين، وعليه فإن هذه الحيلة تبين لنا أنها نقلت الصراع من مجاله السياسي والاجتماعي إلى مجال آخر هو مجال الدين والنصوص الذي ولد عنه أن العقل يتحول تابع للنص ، وتصبح مهمته مقتصرة على استثمار النص لتبرير الواقع إيديولوجيا .

كما أن الهجوم على التفكير العقلي و رفض الخلاف والتعددية قديما وحديثا ، يمثل أساسا من الأسس التي يقوم عليها مفهوم الحاكمية ، ومن أخطر هذه الأسس هو وضع "الإنساني" مقابل "الإلهي" والمقارنة الدائمة بين المنهج الإلهي ومناهج البشر ومن الطبيعي أن تؤدي المقارنة إلى عدمية الجهود الإنسانية ، وبهذا كانت النتيجة من كل ذلك تدنيس التجربة البشرية وإضفاء طابع الإحتقار عليها مما يتطلب ويستوجب تحكيما إلهيا يلغي كل فعل إنساني.

[1] – نصر حامد أبو زيد ، نقد الخطاب الديني، المرجع السابق ، ص63.

وفي سياق حديثه عن الحاكمية يؤكد أنه لكي تتعمق الهوة بين الإلهي و الإنساني لابد من إعادة صياغة المفاهيم الدينية ، بإعادة تأويلها خاصة مفاهيم " العبادة" و "الإله"، و"الرب" و"الدين" ،و هي المفاهيم التي أفرد لها "المودودي" رسالة مستقلة طبعت طبعات عديدة في عديد من البلاد الإسلامية والتي ستشكل الأساس الإيديولوجي لسيد "قطب" فيما بعد. وللوقوف عند شرح هذا الأخير لمفهوم الألوهية بوصفه المفهوم المركزي الذي تتمحور عليه المفاهيم الثلاثة الأخرى بقوله" حق الحاكمية المطلقة ، الذي ينشأ عنه حق التشريع للعباد...وكل من ادعى لنفسه حق و ضع القيم التي تقوم عليها هذه الحياة...و كل من ادعى لنفسه حق و ضع منهج لحياة الجماعة من الناس، فقد ادعى حق الألوهية عليهم، بإدعائه أكبر خصائص الألوهية ، وكل من أقره منهم على هذا الإدعاء فقد اتخذه إليها من دون الله، بالإعتراف له بأكبر خصائص الألوهية [1].

ومن ثمة فحسب هذا المنظور فالإسلام جاء في نظر الخطاب الديني ليحرر الإنسان ، لكن فهم هذا الخطاب للتحرر الذي جاء به الإسلام يتم اختزاله في نقل مجال الحاكمية من العقل البشري إلى الوحي الإلهي في قول نصر حامد أبو زيد : " إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها و أوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض".

وعليه فإن مفهوم الخطاب الديني للتحرر الذي جاء به الإسلام للإنسان يتبدد كاشفا عن الغطاء الإيديولوجي لمفهوم الحاكمية . [2]

---

[1] – نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني ،المرجع السابق، ص68.

[2] – المرجع نفسه ، ص86.

ثانيا : **منطلق النص** : يصرح نصر حامد في مدار حديثه عن مفهوم النص، أن الهدف من ذلك هو الكشف عن بعض خصائص الثقافة العربية الإسلامية في جانبها التراثي التاريخي، وذلك من أجل فهم واقع ثقافتنا العربية الإسلامية المعاصرة ونظامها اللغوي. [1]

ذلك أن النص الديني في ثقافتنا يحتل مكانة مركزية في العالم الإسلامي وهذا ما دفع بهذا الفكر إلى جعله منطلقا أساسيا لفهم الخطاب الديني حيث يتفق هذا الأخير على أن النصوص الدينية قابلة لتجدد الفهم واختلاف والإجتهاد في الزمان والمكان ، لكنه لا يتجاوز فهم الفقهاء لهذه الظاهرة، ولذلك يقصرها على النصوص التشريعية دون نصوص من العقائد أو القصص، وعلى هذا الأساس يؤسس الخطاب الديني لمقولة صلاحية الشريعة لكل زمان و مكان و من يقول عكس ذلك فهو كافر و ملحد.

كما ينتقد أبو زيد هذه النضرة الضيقة لمفهوم النص، معتبرا هذه النصوص دينية كانت أم بشرية محكومة دوما بقوانين ثابتة. فالمصدر الإلهي للنصوص الدينية لا يخرجها عن هذه القوانين لأنها "تأنسنت" منذ أن تجسدت في التاريخ واللغة، وتوجهت بمنطوقها ومدلولها إلى البشر في واقع تاريخي محدد [2].

إن الخطاب الديني بقفزه على الشروط والقوانين التاريخية والدلالية التي تساهم في إنتاج النص، يكون قد جمّد فهمه لحقيقة النصوص الدينية، ولهذا

---

[1] – نصر حامد ابو زيد ، النص و السلطة و الحقيقة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت – الدار البيضاء ، ط5 ، 2006.

[2] – نصر حامد أبو زيد ، نقد الخطاب الديني ، المرجع نفسه ، ص 89.

ينفي الاجتهاد ويعلن أنه "لااجتهاد فيما فيه نص". وهكذا يعلن الخطاب الديني المعاصر جمود النص وتثبيت دلالته على فهم واحد وقاصر، مفسحا بذلك المجال لنفي التعدد وتثبيت الواقع طبقا لما يطرحه هو من آراء واجتهادات [1].

لقد أدى تنصيب النص كسلطة مطلقة إلى التمسك بالدلالات الحرفية في مقابل انحصار التفكير الإبداعي، وهذا ما يستلزم نقدا وتمحيصا للخطاب الديني وكشف آلياته وطريقته في الاشتغال. ومن بين آليات الخطاب الديني الذي يشتغل بها نصر حامد أبو زيد تتوضح لنا في أنه كثيرا ما تتداخل الآليات و المنطلقات إلى درجة التوحد في الخطاب الديني خاصة حتى يستحيل التفرقة بينهما [2]، و قد رصدها في خمس آليات و اعتبرها من بين الأساسيات التي تحكم مجمل الخطاب الديني و تسيطر عليه:

**1- آلية التوحيد بين الفكر والدين.**

لقد كان المسلمون الأوائل يستلهمون من السيرة النبوية نبراسا يقتدون به في حياتهم اليومية وكان هاجسهم التفريق المنهجي بين مجالات تحرك النصوص الدينية والمجالات التي تخضع للخبرة الإنسانية وترتكز إلى النشاط العقلي وكانوا « كثيرا ما يسألون إزاء موقف بعينه ما إذا كان تصرف النبي محكوما بالوحي أم محكوما بالخبرة والعقل.كثيرا ما كانوا يختلفون معه، ويقترحون تصرفا آخر إذا كان المجال من مجالات العقل والخبرة« عملا بمبدأ « أنتم أعلم بشؤون دنياكم« [3] .

---

[1] – نصر حامد أبو زيد ، نقد الخطاب الديني ، المرجع نفسه ، ص **99**.

[2] – نصر حامد أبو زيد ، نقد الخطاب الديني ، المرجع السابق ، ص **21**.

[3] – المرجع نفسه ، ص **22**.

وقد انتقد حامد أبو زيد هذه الآلية في الخطاب الديني المعاصر من حيث دخولها منطقة « الحديث باسم الله«.

وعندما يقر فهمي هويدي بأن »هناك إسلام واحد ،كتاب واحد، أنزله الله على رسوله، وبلغه رسوله إلى الناس« [1] يكون قد ربط التأويل والاجتهاد في فهم النصوص من بين المستحدثات وبذلك فهذا الرأي حسب نصر أبو زيد أدى إلى ظهور نتيجتين :

النتيجة الأولى: »أن للإسلام معنى واحدا ثابتا لا تؤثر فيه حركة التاريخ، ولا يتأثر باختلاف المجتمعات، فضلا عن تعدد الجماعات بسبب اختلاف المصالح داخل المجتمع الواحد« [2] ،وهذه النتيجة تفترض وقوع الفهم في الحاضر بينما ينتمي النص إلى الماضي ، وقد تؤدي هذه النتيجة إلى الثانية التي تقر بأن هذا »الفهم« ليس مشاعا بين عامة الناس على اعتبار أن « هذا المعنى الواحد الثابت يمتلكه جماعة من البشر – هم علماء الدين قطعا– وأن أعضاء هذه الجماعة مبرؤون من الأهواء والتحيزات الإنسانية الطبيعية« [3].

2– آلية رد الظواهر إلى مبدأ واحد .

لقد اعتُبر تصور هذه الآلية «امتدادا للموقف «الأشعري «القديم، الذي ينكر قوانين السببية في الطبيعة والعالم لحساب « جبرية« شاملة ، تمثل غطاءا

---

[1] – فهمي هويدي ، القرآن و السلطان ، دار الشروق ، القاهرة ، ط2 ، 1982 ، ص 7.

[2] – نصر حامد ابو زيد – الخطاب الديني ، رؤية نقدية ، دار المنتخب العربي دراسات إسلامية ، بيروت ، ط1، 1992، ص21.

[3] –– نصر حامد ابو زيد – الخطاب الديني ، رؤية نقدية ،المرجع السابق ، ص 23–24.

أيديولوجيا للجبرية الاجتماعية والسياسية في الواقع« [1]، فهذه الآلية ترجع جميع العلل إلى العلة الأولى أو المبدأ الواحد الذي يرجع جميع التحركات مرسومة مسبقا والتي لا يد للإنسان في حدوثها وبحسب هذه « الحاكمية »المرتبطة بهذه الآلية فالإنسان يتحرك وفق ما هو مكتوب في «لوحه المحفوظ« ولا دخل له في كونه مثلا سكيرا أو زانيا أو فقيرا أو غنيا أوكافرا أو ... وبذلك كانت مقولة « الجبر« ترجع كل ما ينتجه الإنسان من أفعال إلى إرادة الله وقدرته الشاملة من ذلك رد أبو حامد الغزالي على الفلاسفة في كتابه « تهافت الفلاسفة« بأن الله هو الفاعل على الحقيقة في كل جزئيات العالم وأحداثه وانتهى به الأمر إلى « إهدار قوانين السببية .من هنا الاعتقاد الخطير الذي ساد الخطاب الديني في الثقافة العربية أن النار لا تحرق ، وأن السكين لا تقطع « وأن الله هوالفاعل من وراء كل الأسباب« .

**3- آلية الاعتماد على سلطة السلف.**

الفكر السلفي يجسد موقف النص الديني كنص مقدس من تحولات الواقع على امتداد التاريخ، وينتج الخطاب السلفي منظومة الثابت من وجهة نظر تطهرية(Puritan) في الخطاب الديني عموما فهو يقدم النص الديني باعتباره كاملا حسب الآية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) (المائدة:3) فبحسب هذا التوجه السلفي يجد المسلم إجابات قاطعة لكل مشاكله المستجدة وذلك بالرجوع إلى القرآن والسنة ومن ذلك فالإسلام دين شامل ( ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء

[1] – المرجع نفسه ، ص 25.

وهدى ورحمة) (الأنعام: 38.)« فالإسلام حوار مستمر بين النص الديني والحياة الواقعية، أو جدل دائم بين ثابت أزلي وبين متغير متجدد«.

وإذ يرجع السلفيون أسباب تدهور أحوال المسلمين إلى ابتعادهم عن التعامل مع النص في منبعه يرجع الشيخ محمد عبده ذلك إلى جمود الفقه في فهم الدين واستمراره في التشبث بهذا الجمود يقول:« كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم، ويسبح به في الأرض ويصعد به إلى أطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله ، أو يكشف به سرا من أسراره في خليفته، أو يستنبط حكما من أحكام شريعته«.

تتحول في هذه الآلية أقوال السلف واجتهاداتهم إلى »نصوص« غير قابلة للجدل أو التجريح « بل يتجاوز الخطاب الديني هذا الموقف إلى التوحيد بين تلك الاجتهادات وبين الدين ذاته« [1].

وقد يرتبط بهذه الآلية الاستخدام المنهج للغة القديمة في مناقشة القضايا المعاصرة للوقوف أمام مسيرة العقل والرجوع بالواقع الحالي إلى واقع مضى، وبذلك فالنصوص لا تملك الحقيقة خارجها من حيث محدوديتها بينما الوقائع غير متناهية تؤكد بالملموس أن قراءة النصوص الدينية لابد أن تأخذ بعين الاعتبار الثابت من دلالتها من المتغير ، وقد كانت حياة الرسول(ص) خير دليل على محدودية النصوص التي استوجبت نسخها لتماشي لانهائية الواقعة الاجتماعية يقول طاهر حداد «ونحو عشرين سنة من حياة النبي(ص) في تأسيس الإسلام(...) أوجبت نسخ نصوص بنصوص، وأحكام بأحكام اعتبارا لهذه السنة الأزلية « .

[1]- نصر حامد ابو زيد –الخطاب الديني ، رؤية نقدية ،المرجع السابق ، ص28.

**4- آلية اليقين الذهني والحسم الفكري .**

إ ن هذه الآلية تتلاحم عضويا مع آلية « التوحيد بين الفكر والدين » في الخطاب الديني المعاصر الشيء الذي يجعل المتشبعين بهذه الآلية من المسارعين بتجهيل خصومهم وتكفيرهم دون هوادة ، فهذا الخطاب لا يقبل بالاختلاف على اعتبار أنه يمتلك الحقيقة الشاملة والمطلقة وبذلك يلجأ إلى لغة الحسم الفكري على أساس اعتبار أن الإيمان الديني هو« أن يعتقد المؤمن أنه على حق، أن مخالفه على باطل، ولا مجاملة في هذه الحقيقة«.

**5- آلية إهدار البعد التاريخي.**

تنتمي النصوص إلى الماضي بحكم لغتها التي تعتبر عند اللغويين كائنا يتطور وينمو ويموت ف« يؤدي التوحيد بين الفكر والدين إلى التوحيد مباشرة بين الإنساني والإلهي ، وإضفاء قداسة على الإنساني و الزماني« [1]وقد يغالي الخطاب الديني في الاطمئنان إلى مسلماته وجعل حلول الماضي قابلة للتطبيق على الحاضر و« لا يكتفي بإهدار البعد التاريخي الذي يفصله عن زمان النص، بل يزعم لنفسه قدرة على الوصول إلى القصد الإلهي « [2].

وتتمتع النصوص من وجهة نظر هذه الآلية على نفس قداسة النصوص الأولى مكثفة في ذلك محو البعد التاريخي والارتكان إلى الصفاء الأول وتفسير أزمة المجتمع الإسلامي المعاصر إلى ابتعاده عن « منهج الله« وبذلك تلتقي هذه الآلية بمثيلتها وهي آلية رد الظواهر إلى مبدأ واحد.

---

[1] – نصر حامد ابو زيد –الخطاب الديني ، رؤية نقدية ،المرجع السابق ، ص37.

[2] – نصر حامد ابو زيد –الخطاب الديني ، رؤية نقدية ،المرجع السابق ، ص 38

فالمقدس احتل في المنظومة الإسلامية موقعا متميزا ، الشيء الذي جعل سلطة المصدر التشريعي الأول تنبني على الإيحاءات الأولى للمقدس الذي يتماشى مع المجتمع الحاضن، فيستمد المقدس قوته وعنف دلالاته من ثباته..« من ترسيخ المقولات وأنظمة التفكير وصيغ التعبير على أساس الصلاحية المطلقة، إنه يمارس عنفه عندما يُصر على إعادة إنتاج مضامينه، لا طبقا للحظة وإنما عبر زمن تشكَّل نهائيا« [1].

تشكل هذه الآليات مجتمعة طريقة اشتغال الخطاب الديني المعاصر الذي يستوجب النقد والتأويل، وقد سعى نصر حامد أبو زيد إلى هذه المهمة الشاقة بكل روح نقدية وتأويلية متسلحا بالشجاعة الفكرية ضد سلطة هذا الخطاب نفسه وضد أصحابه الذين يزعمون أنهم الموكلون الوحيدون الذين يحق لهم التكلم باسم الدين. ويعترف أن تحليل الخطاب الديني ونقده يمر عبر كشف منطلقات هذا الخطاب والياته الفكرية، فمن الصعب الفصل بين الخطاب ومنطلقاته الفكرية والأيديولوجية.

يقول أبو زيد: " هناك خمس آليات... استطعنا رصدها حتى الآن، فمن الواجب ألا نزعم أنها تستوعب كل آليات الخطاب الديني، فلا شك أن مجال الرصد والإضافة – بمزيد من العمق والدقة في تحليل – سيظل مفتوحا، سواء بالنسبة للآليات أو بالنسبة للمنطلقات. إن هذه الآليات الخمس تمثل – في تقديرنا – الآليات الأساسية والجوهرية التي تحكم مجمل الخطاب الديني وتسيطر عليه [2]."

---

[1] – التيجاني القماطي ، المقدس و العنف، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد 98–99 ، سنة 1992 ، ص 34.

[2] – نصر حامد ابو زيد – نقد الخطاب الديني – المرجع السابق – ص 89.

إن النقد الذي قدمه أبو زيد للخطاب الديني يعد بحق محاولة رائدة وشجاعة في سبيل إبراز الضعف والتهافت الذي يكمن في بنية هذا الخطاب الذي ينبت كل أشكال ومظاهر التخلف. ولا يمكن اليوم التساهل مع هذا التخلف، بل يجب استئصاله من الجذور.

ومن ثمة إن القضية الأساس التي يغيبها الخطاب الديني هي قضية البعد الثقافي- التاريخي لهذه النصوص والذي يتعلق بالمفاهيم في تاريخيتها من خلال منطوقها واجتماعيتها، فالنصوص ثابتة في المنطوق متغيرة في المفهوم «الأمر الذي يؤكد أن للمفاهيم بعدها الاجتماعي الذي يؤدي إهداره إلى إهدار دلالات النصوص ذاتها« [1]. هذا وقد استدرك نصر حامد أبو زيد القول بإمكانية النصوص وقدرتها على إنتاج دلالتها مع استطاعتها مخاطبة عصور تالية أو مجتمعات أخرى وخاصة النصوص التشريعية–دون نصوص العقائد أو القصص- التي يتفق حولها الخطاب الديني من حيث قابليتها لتجدد الفهم واختلاف الاجتهاد في الزمان والمكان .

ومن ضمن الإشكاليات العميقة داخل الخطاب الديني هو جمود الدلالة اعتمادا على مبدأ « لا اجتهاد مع النص« الذي تحول خرقه إلى اعتماد الفقهاء الاجتهاد بالترجيح بين آراء القدماء والاختيار منها.

وللتذكير فقد كان القدماء لا يشيرون إلى القرآن والحديث باسم النصوص بل يستخدمون للدلالة على: – النص القرآني (الكتاب، التنزيل، القرآن)، – النص الحديثي (الحديث، الآثار، السنة).

[1] – نصر حامد ابو زيد – الخطاب الديني ، رؤية نقدية ،المرجع السابق ، ص 57.

وقد عرف الإمام الشافعي النص باعتباره وحدة دلالية غير قابلة للتفسير في قوله« مستغنى فيه بالتنزيل عن التأويل« ، إلا أن إشكالية السياق تظل حاضرة في بناء النص على مستوى إنتاج الدلالة أي على مستوى التنزيل والتأويل باعتبار الثقافي يستدعي الاجتماعي الذي يقصد بالسياق الثقافي للنصوص اللغوية « كل ما يمثل مرجعية معرفية لإمكانية التواصل اللغوي « [1]وهي غالبا المرجعية التي تجعل النصوص الدينية ومن خلال السياق الثقافي تظهر دلالتها على اعتبار أن تعدد مستويات سياق القراءة« تعد جزءا من منظومة السياق المنتجة لدلالة النصوص، وليست مجرد سياق خارجي إضافي« [2].

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن مشروع نصر حامد أبو زيد يركز على تأويل الفكر الديني و نقده بإعتباره خطابا مثله مثل باقي الخطابات الأخرى و بالتالي فهو يدعو إلى التحرر من سلطة النصوص و أولها القرآن الكريم ، فالنص القرآني كأي نص يخضع للدراسة و المناقشة و التأويل أي الهيرمونيطيقا ، و هذا ما أشار إليه في قوله "قد آن الأوان المراجعة والإنتقال إلى مرحلة التحرر لا من سلطة النصوص وحدها، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا ، علينا أن نقوم بهذا الآن وفورا قبل أن يجرفنا الطوفان"، ويقول أيضا: "إن القول بأن النص منتج ثقافي يكون في هذه الحالة قضية بديهية لا تحتاج إلى إثبات". [3]

---

[1] – نصر حامد أبو زيد –النص ، السلطة ، الحقيقة ، المرجع السابق، ص 98.

[2] – المرجع نفسه ، ص 113.

[3] – نصر حامد أبو زيد ،نقد الخطاب الديني ، المرجع السابق، ص145.

فالوحي عنده ظاهرة في "الثقافة" وهذه الأخيرة عنده عبارة عن إفراز ونتائج للتطورات المادية والبنى الإقتصادية والإجتماعية ، ذلك لأن ظاهرة النص والوحي والنبوة والدين هي أوصاف ناتجة عن البيئة.

بمعنى أن ظاهرة الوحي بالنسبة له لم تكن غريبة عن الرسول فهو كان يعاني دون شك إحساسا طاغيا بالإهمال و الضياع" بمعنى أنه ليس مصدر سماوي مقدس و هنا نفي عنه صفة الفوقية إن صح التعبير،لأنه عنده خرج من الواقع ورجع إلى الواقع وليس هناك إلا الواقع، وهو ينص على ذلك في قوله:"فالواقع أولا والواقع ثانيا، والواقع أخيرا" بمعنى الواقع فقط، وهنا يتضح لنا أن نصر حامد أبو زيد لم يكن يعزل نفسه عن الواقع ولا عن استخدام امكانياته وتطويرها لصالحه وما يدعوا إليه، ومن ثمة قد طور هذا الوحي الواقع و أعاد صياغته من جديد بما يتلائم مع ظروف النبي- صلى الله عليه وسلم- في قوله: "إن النصوص و إن تشكلت من خلال الواقع والثقافة تستطيع بآلياتها أن تعيد بناء الواقع و لا تكتفي بمجرد تسجيله أو عكسه عكسا مرآويا بسيطا" [1].

وكل ذلك يتماشى مع فلسفة المادية الجدلية التي تدعي أن الواقع هو منشئ الوعي والدين والأخلاق وليس العكس، وأن الوحي ما هو إلا من خيال الأنبياء ناتج عن ظروف الفقر واليتم و الإظطهاد، فهذه الموازين المادية التي تنفي وجود الله وتلغي عالم الغيب لصالح عالم الحس انتهج "نصر حامد أبو زيد" طريقا لها في تحليل القرآن و تفسيره أي بأفق الماركسية والمادية الجدلية و الهرمونيطيقا.

[1] – نصر حامد أبو زيد ،نقد الخطاب الديني ، المرجع السابق، ص69

وعليه فإن نصر حامد ابو زيد طالب بالتحرر من سلطة النصوص وأوله القرآن الكريم الذي قال عنه أن القرآن هو النص الأول والمركزي في الثقافة و هو المهيمن والمسيطر، وقد آن الأوان للمراجعة والإنتقال إلى مرحلة التحرر لا من سلطة النصوص وحدها ، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان .

ومن ثمة فإن النص القرآني نص لغوي لا تمنع طبيعته الإلهية من دراسته و تحليله بمنهج بشري و إلا تحول إلى نص مستغلق على فهم الإنسان العادي ، مقصد الوحي وغايته.

وكما سبق الذكر فإن أبو زيد يتطرق إلى النص على انه مشروط و محدد بأفق معين وبنظام لغوي محدد ، وبالتالي فهو يدخل على في سبيل فهمه مدخلا لغويا من خلال الثقافة العربية ونظامها اللغوي.

وفي هذا الصدد يقول أبو زيد: "إن الله سبحانه وتعالى حين أوحى للرسول بالقرآن اختار النظام اللغوي الخاص بالمستقبل الأول. وليس اختيار اللغة لوعاء فارغ و إن كان هذا ما يؤكده الخطاب الديني المعاصر ، ذلك أن اللغة أهم أدوات الجماعة في إدراك العالم و تنظيمه.وعلى ذلك لا يمكن أن نتحدث عن لغة مفارقة للثقافة والواقع، و لا يمكن من ثم أن نتحدث عن نص مفارق للثقافة والواقع طالما أنه نص داخل إطار النظام اللغوي للثقافة"، وعليه إن ألوهية مصدر النص لا تنفي واقعية محتواه ولا تنفي من ثم لا تنفي انتماءه إلى ثقافة البشر ، ذلك أن النص كله لا يدل إلا من خلال النظام اللغوي الخاص بالمخاطبين وبالتالي فإن هدف دراسة نصر حامد أبو زيد تأكد على أنه أية قراءة للنص إنما يجب أن تصدر من مسلمة أساسية

تتمثل في أن النص طالما هو نص لغوي وطالما أن اللغة لا يمكن أن تكون مفارقة لثقافة الجماعة المستخدمة ، فبالتالي يترتب عن ذلك أن النص ليس بمعزل عن الثقافة والواقع وهذا هو الأمر عينه الذي أكدت عليه الهرمونيطيقا بهذا الصدد أن النصوص تستوي فيم بينها ، فليس هناك أي مجال للفصل بين ماهو نص مقدس وآخر غير مقدس.

ومن الملاحظ أيضا أن النص الديني يستخدم آليات خاصة في إنتاج المعنى قد لا نجدها في غيره من النصوص الأخرى، وأن له استراتيجية المختلفة في توظيف الدلالة و في عملية إنتاج المعنى ، وهناك آليات عامة تشترك فيها جميع النصوص على اختلافها ، سواء كانت دينية أو أدبية أو قانونية...وهو ما كشفت عنه هذه الحقول المعرفية الحديثة وعلى رأسها الهرمونيطيقا.

وهذا هو طبعا ما يؤكده المنظر نفسه في مقدمة دراسته، من منطلق الوعي بالتراث الأصولي (علم القرآن)، بإعتباره مقدمات للتفسير يتضمن مفهوما غير مباشر و غير مصرح به حول ماهية النص القرآني ، حيث يقول: " إذا كانت الثقافة العربية ثقافة تعطي للنص القرآني هذه الأولية وتجعل من التأويل نهجا فلا بد أن لهذه الثقافة مفهوما ولو ضمنيا لماهية النص ولطرائف التأويل، ومع ذلك فقد حظي جانب التأويل ببعض الدراسات التي ركزت على العلوم الدينية و تجاهلت ما سواها، ولم يحظ مفهوم النص بدراسة تحاول استكشاف هذا المفهوم في تراثنا إن كان له وجود أو تحاول صياغته وبلورته إن لم يكن له وجود [1].

[1] – نصر حامد أبو زيد ، مفهوم انص (دراسة في علوم القرآن)، ص 10

ومن هذا المنوال فإن هذه الدراسة ستكتفي بالتعامل مع المفهوم الأساسي لعلوم القرآن، وهو مفهوم النص وسيكون هذا المفهوم هو محور حركتنا بين علوم القرآن المختلفة [1].وهو ما يجعل من هذا المفهوم الضمني للنص غاية و موضوعا بالنسبة لدراسة المنظر.

ومن ثمة فإن الغاية من تحليل النصوص وتحليل الخطاب هي تحدي سلطة النص والكشف عن آليات استخدامه كوسيلة للهيمنة. ويوضح ذلك كما يلي، ولعلنا الآن نستطيع أن نقول إن "النصوص" في ذاتها لا تمتلك أي سلطة، اللهم إلا تلك السلطة المعرفية التي يحاول كل نص – بما هو نص – ممارستها في المجال المعرفي الذي ينتمي إليه. إن كل نص يحاول أن يطرح سلطته المعرفية بالجديد الذي يتصور أنه يقدمه بالنسبة للنصوص السابقة عليه. لكن هذه السلطة "النصية" لا تتحول إلى سلطة ثقافية اجتماعية إلا بفعل الجماعة التي تتبنى النص وتحوله إلى إطار مرجعي. من هنا تصح التفرقة بين "النصوص" والسلطة التي يضفيها عليها العقل الإنساني ولا تنبع من النص ذاته. ومن هنا تكون الدعوة إلى "التحرر من سلطة النصوص" هي في حقيقتها دعوة إلى التحرر من السلطة المطلقة والمرجعية الشاملة للفكر الذي يمارس القمع والهيمنة والسيطرة حين يضفي على النصوص دلالات ومعاني خارج الزمان والمكان والظروف والملابسات. [2]

والنتيجة المترتبة على التحرر من سلطة النص هي حرية العقل الإنساني في فهم النصوص وبالتالي تحقيق عملية الإصلاح والتجديد الديني

---

[1] – نصر حامد أبو زيد ، مفهوم انص (دراسة في علوم القرآن)،المرجع السابق ، ص18.

[2] – نصر حامد أبو زيد ، التفكير في زمن التكفير ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط3 ، 2003.

ذلك إن الدعوة للتحرر من سلطة النصوص ومن مرجعيتها الشاملة ليست إلا دعوة لإطلاق العقل الإنساني حرا يتجادل مع الطبيعة في مجال العلوم الطبيعية، ويتجادل مع الواقع الاجتماعي والإنساني في مجال العلوم الإنسانية والفنون والآداب. فهل تتصادم هذه الدعوة مع النصوص الدينية أم تتصادم مع السلطة التي أضفاها بعضهم بالباطل على بعض تلك النصوص، فحولوها قيودا على حركة العقل والفكر؟ إن هذه الدعوة للتحرر لا تقوم على إلغاء الدين ولا تقوم على إلغاء نصوصه، لكنها تقوم على أساس فهم النصوص الدينية فهما علميا [1].

إذن فغاية الهرمونيطيقا التي هي نظرية في التفسير غريبة المبنى والمعنى تحطم الأسطورة الدينية ، و الرمز لا يعني شيئا قط، وإنما هو وسيط شفاف أو بالمعنى الأصح حقيقة زائفة ، ينم عما وراءه من موروثات لغوية بيئية، معرفية و تاريخية أسطورية.

وبالتالي فجوهر المشروع الفلسفي للدكتور نصر أبو زيد هو الاعتماد على المناهج الحديثة والمعاصرة في فهم النص الديني. وهو الأمر الذي يؤدي إلى إنجاز مرحلة الإصلاح الديني ومن ثم دفع تحول المجتمعات العربية والإسلامية نحو النهضة. والمناهج الحديثة هنا تشمل الهرمنيوطيقا، تحليل الخطاب، البنيوية، الألسنية، والتاريخانية، إضافة إلى علم تاريخ الأفكار وعلم اجتماع المعرفة.

وعليه فالسؤال الذي يقف وراء دراسات أبو زيد هو كيف نفهم النص ونقرأه ؟ ولذلك كان من الضروري أن يكون التركيز في هذه الدراسة على

[1] – نصر حامد أبو زيد ، التفكير في زمن التكفير ،المرجع السابق ، ص **146**.

جانب النص ذاته وذلك في محاولة لإكتشاف مكوناته و آلياته الخاصة و دوره الإيجابي في عملية التأويل.

ومن هنا يمكن القول نصر حامد أبو زيد اعتني مشروعه النقدي بطرق قراءة النصوص الدينية بتفكيك بناها وتبيّن مقوّماتها. وذلك بالاستناد إلى المكتسبات المعرفية المعاصرة المُستمَدّة من علوم عديدة منها اللسانيات والسيمولوجيا وتحليل الخطاب... على أنّ أهم مقاربة عوّل عليها في قراءة الموروث الديني هي المقاربة التأويلية التي تُعدّ المقوّم الرئيسي في مشروعه النقدي الساعي إلى تجاوز النظرة التقليدية للتراث من خلال إعادة النظر في المسلمات التي حوّلها الضمير الديني إلى حقائق متعالية عن التاريخ.

## فهرس المراجع:


1- نصر حامد أبو زيد ، نقد الخطاب الديني ، المركز الثقافي العربي ، ط3، 1994.

2- نصر حامد ابو زيد ،النص والسلطة والحقيقة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت – الدار البيضاء، ط5، 2006.

3- نصر حامد أبو زيد ، التفكير في زمن التكفير ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط3 ، 2003.

4- نصر حامد ابو زيد – الخطاب الديني ، رؤية نقدية ، دار المنتخب العربي دراسات إسلامية ، بيروت ، ط1، 1992.

5- فهمي هويدي ، القرآن و السلطان ، دار الشروق ، القاهرة ، ط2 ، 1982.

- المجلات :

1- التيجاني القماطي ، المقدس و العنف، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد 98-99 ، سنة 1992.